الذوق الفنى فى مصر
وأسطورة نهر الجنون
للأستاذ سـيد قطب

أسطورة « نهر الجنون » معروفة ، ولكن لا ضرر من التذكير بها فى هذا المقام ؛ فهى تتلخص فى أن ملكا رأى فى نومه أن النهر الجارى بجوار قصره يصاب كل من شرب منه بالجنون . وأصبح فوجد أفراد الشعب كله - والملكة معهم - قد شربوا من النهر وجنوا ، فحزن وقلق على شعبه وعلى رفيقة حياته ، ولم يكن هناك أحد لم يشرب إلا الملك والوزير

وبينما كان الملك ووزيره فى شغل شاغل بالطب لهذه الكارثة كانت الملكة حزينة قلقة على الملك الذى جن — فى رأيها ورأى الشعب — لأنه لم يشرب هو ولا وزيره ...

وأخيراً، شرب الملك وشرب الوزير !!!

* * *

هذه الأسطورة تتكرر كل يوم فى مصر - فى عالم الفنون - بين العقلاء المجانين ، وهم قلة قليلة ، والمجانين العقلاء وهم كثرة كثيرة !!

فى مصر مدرسة فنية عرفت باسم « المدرسة الحديثة » ، وهى تجاهد منذ ثلاثين سنة لرفع الذوق الفنى ، بل لخلق الذوق الفنى . ولكن الذين اتبعوها لا يزالون فئة قليلة ، والذين فهموها فئة أقل ، والذين تجاوبوا معها بعد فهمها فئة أندر . وهؤلاء هم الذين لم يشربوا من النهر ، ولا تزال آراؤهم فى الحياة والفن تثير العجب العاجب بين الشاربين !

وهذه المدرسة يبدو أن كل همها موجه لتصحيح مقاييس الأدب ، ولكنها فى الواقع تجاهد فى تصحيح مقاييس الإحساس بالحياة جلها وتفصيلها ، وتقويم الأذواق فى أصولها وفروعها ، فكل ما هو مادة حياة ومادة شعور ينال عناية هذه المدرسة . ومن ثم كان للموسيقى وللغناء نصيب وافر من جهادها

ولقد أغضب زعماء هذه المدرسة وأملأ قلوبهم ظلاماً ويأساً إذا قلت لهم : إنهم فشلوا أشنع الفشل فى رسالتهم ، وأن أتباعهم - على قلتهم - ليسوا جميعاً بفاهمين حقيقة دعوتهم لأن طباعهم لا تتسع لها ، وإحساسهم لا يستوعبها

وإنى لأخشى أن أقذف بها كلمة مزعجة مؤذية فأقول لهم : إن الظواهر حتى الآن تكاد تجزم بأن طبيعة هذا الشعب ليست على استعداد للتجاوب معهم ، وأن الشذوذ وحده هو الذى أطلعهم بين ظهرانيه ، وأن المشكلة ليست مشكلة الفهم والتفهيم ، ولكنها مشكلة الطبيعة التى لا تتسع لمثل ما فى نفوسهم من أحاسيس . وعليهم إذن أن يشربوا من النهر ، أو أن ينزووا عن المجانين العقلاء !

وإنها لصيحة مزعجة ، ودعوى يتمنى مدعيها من صميم نفسه ألا يكون محقاً فيها ، ولكن الدلائل جميعها - مع الأسف - تدل على صدقها الأليم

والخطب فى هذه المسألة متفاوت الدرجات ، فقد يكون فى الأدب أخف - إلى حد ما - لظهور طبقة قليلة من الشبان تبشر بالخير الضئيل . ولكنه فادح فادح فى الموسيقى والغناء . هذه الموسيقى التى لا نسمع غيرها ، وذلك الغناء الذى ليس لدينا سواه فقد مضت القرون تلو القرون ، وليس لنا موسيقى واحد ، ولا مغن واحد ، وكان « سيد درويش » فلتة شاذة ، وهو مع هذا لم يرتفع إلى المستوى العالمى ، ولكنه كان « إنساناً » فى فنه ، يحمل طابع الآدميين ، وكان هذا كسباً ، لأن « الآدمية » وحدها ، لا الآدمية الممتازة هى التى نفتقدها فى موسيقانا وغنائنا ، فلا نعثر على ظل لها فى الجميع ، وما نزال نسمع ألحاناً وأنغاماً ، هى رجع التأوهات الحيوانية المريضة وصدى الميوعة المسترخية المتوفة ، دون أن يخطئ ملحن أو مغن مرة واحدة فيسمعنا صوت الإنسان السليم !

والقارئ يرى من هـذه الكلمات ، أن قائلها « لم يشرب من النهر » ولا شك . وإلا فهل يصدق أحد والأغانى ترن فى الآذان ليل نهار ، وتحملها أجنحة الأثير بالعشى والأبكار ، أن ليس فى مصر مغن واحد ولا مغنية منذ أجيال ، وليس فيها ملحن واحد منذ قرون ، وليس فيها موسيقى واحد فى تاريخها الطويل ؟ .

أهذا كلام ؟ ! أليس هو الجنون بعينه ، أو العقل الذى هو عين الجنون ؟

فى مصر مطربون ومطربات ، وفى مصر مُلحنون وموسيقيون ، والشعب كله يردد أغانيهم وألحانهم ، ويتهافت على حفلاتهم ورواياتهم ، ويدمى أكفه من التصفيق إعجاباً بهم ، فهل يصدق أحد أن مصر – فيما عدا أغانى سيد درويش لم تطعم الموسيقى ، ولم تتذوق الغناء ، ولم يتردد فى جوها صدى واحد فيه مسحة الآدمية ؟

هذه قولة غليظة – لم تشرب من النهر – ولكنها كانت خليقة أن تنبض بها كل فطرة ، وأن يرددها كل لسان ، لولا أن الجميع قد شربوا مع الأسف شربوا حتى فقدوا وعيهم فهم مخمورون لا يفيقون من هذه الألحان المريضة ولن يصدقوا من يقول لهم : إنهم مخمورون ، لأن الأغلبية لا بد أن تكون هى الواعية فى جميع العصور !

***

وبعد فما جدوى هذه الكلمات ؟

لقد كان يرجى لها بعض الفائدة ، لو مرت مع الشاربين المخمورين إلى منتصف الطريق ، وكتمت عنهم نصف الحقيقة ، وارتضيت أنصاف الحلول . لو قلت لهم : إن هناك أغنيات وألحاناً سليمة وأخرى غيرها مريضة ، وأنك تعجب من فلان أو فلانة بكذا وكذا ، وتنكر عليهما كيت وكيت . . .

أما وأنت تجبه هذه الملايين – على اختلاف ذوقها الفنى – بأن ما يستحسنونه سواء من حيث أنه لا ينتسب إلى فن الموسيقى وفن الغناء ، وأن ما يسمعون إنما يتفاضل فى دائرة بعيدة عن دائرة الفنون الآدمية ، فيرتفع أو ينحط ، ولكنه لا يعبر فى ارتفاعه أو انخفاضه عن نفس إنسانية على الإطلاق . . .

أما وأنت تدعى هذه الدعوى غير المعقولة ، فلا سمع ولا تصديق وعليك أن تشرب من النهر الذى شرب منه الجميع . . .

هذه كارثة . كارثة أن نعيش أمة كاملة بلا موسيقى ولا غناء وأن يكون غذاؤها الروحى هو هذا الترنيم المريض الزائف . وأشد من هذه الكارثة هولا أن تستسيغ هى هذا الغذاء

ولست أدرى كيف يكون العلاج ، والذين يتولون العلاج فى غالب الأحيان هم أنفسهم مخمورون ، شاربون من النهر ، وإن نعوا على الشاربين !

موسيقى جديدة وتلحين جديد ومطربون ومطربات جدد ، وأذواق للسامعين غير هذه الأذواق . أذواق لا تستسيغ أية قطعة أو لحن مما تتردد فى مصر منذ مئات السنين . كل هذا وفى آن واحد هو ما نحتاج إليه لتحسب فى عداد الآدميين

والمعجزة وحدها هى التى تستطيع أن تفعل ذلك لا الجهد البشرى ولا المدرسة الحديثة ، ولا عشرات الكتب ، ولا ألوف المقالات فى الصحف

وتسألنى : وفيم إذن تكتب هذه الكلمة ، وتشغل بها فراغاً من صفحات هذه المجلة ، وفراغاً من وقت القراء ؟ فأجيبك : إنها صيحة من لم يشرب من النهر ، أو هى صيحة الجنون فى عرف المجانين !

(حلوان) سيد قطب

تقويم هذا العام

للأستاذ عباس محمود العقاد

تقويمُ هذا العام من ... لحظاته الأولى لديك
قومى ارفعيه وارفعى ... عنه الغطاء براحتيك
من يوم مطلعه إلى ... رُجْعاه ، موقوفٌ عليك

***

وإذا انتهت أيامه ... ولكل عام منتهاه
فعليك أنت وداعه ... وترحِّبين بما تلاه
ويُحيى إذا دار المدى ... ورعيتُ وحدى ملتقاه !

***

هى قبلةٌ ضمت عُرَى ... عامين فاتصلا اتصالا
ومُنى الخواطر فى غدٍ ... عام كسابقه مآلا
لا نعجلن به فما ... أقسى الحياة على العَجالَى

***

لا . لا . فهذا يومنا ... وغدٌ ، وبعد غد ، خفاء
أنا مغمضٌ عينى ومسـ ... ـتمعٌ إلى حادى الرجاء
فإذا سمعت حداءه ... فدعيه يمضى حيث شاء

عباس محمود العقاد